

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة زيان عاشور- الجلفة -

كلية الآداب واللغات والفنون



قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

دور السياق في توجيه المعنى عند المفسرين (سورة يوسف - أنموذجا-)

مذكرة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها

تخصص: علوم اللسان

دفعة 2017

إشراف الأستاذ:

- سعيدي الحواس

إعداد الطالبين:

- منصور نور الدين

- قاسم مفتاح

الموسم الجامعي: 2016/2017

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور بالجلفة

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

دور السياق في توجيه المعنى عند المفسرين (سورة يوسف - أنموذجا -)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها

تخصص: علوم اللسان

أعضاء اللجنة المناقشة :

د/ بلعدل طيب مصطفى رئيسا

د/ سعدي الحواس مشرفا ومقرا

د/ بوشيبة ابو بكر عضوا ممتحنا

السنة الجامعية: (2017/2016)

شكر وعرفان

بداية، الشكر كل الشكر لله عز و جل عن كثير فضله، وسائر نعمائه، الذي وفقنا لإتمام هذا العمل، كما نتقدم بجزيل الشكر لأستاذنا الفاضل، سعيدي الحواس، الذي أمد لنا يد العون طيلة بحثنا هذا، و أفاض علينا من عطائه، -أطال الله عمره في الخير-، وكان خير سند لنا في عملنا هذا، كما كان خير موجه لنا حيث أنار طريقنا، وزرع فينا روح الجد في البحث والعمل، وأمدنا بنصائحه القيمة، وتوجيهاته الصائبة الراشدة، كما نتقدم بالشكر للأستاذ صالح قاسم، الذي أفادنا بكثير من التوجيهات والنصائح كما نتقدم بالشكر لكل من ساهم في مساعدتنا من قريب أو بعيد.

كما نتقدم بجزيل الشكر إلى كل من ساهم معنا في إنجاز هذا العمل

مقدمة:

الحمد لله الذي نصب للحق دليلاً، والصلاة والسلام على النبي الأمين أعلم الناس بمراد الله، ورضي الله عن صحابة رسوله الكرام الأئمة على الوحي، ومن تبعهم بإحسان، وبعد.

كان تفسير النص القرآني - وما زال - الشغل الشاغل للمفسرين، لأن فهم المراد من النص الهدف الأسمى، والغاية الكبرى؛ لما له من الآثار والثمار، فلا غرو بهذا الاعتبار أن تتجه الأنظار إلى تفسير النص القرآني منذ نزوله.

وقد صاحب تفسير النص القرآني تباين في الوسائل والغايات، فحرص المفسرون على الكشف عن المراد من النص في ضوء ما أتيح لهم من معالم وقرائن معينة على فهمه.

كما حرصوا على الحيلولة دون العبث بالنص القرآني، فعمدوا بعد الإستقراء إلى وضع مجموعة من القرائن التي تعين على التفسير السليم له، ولتكون بمثابة الميزان الذي يعرف به التفسير المقبول من غيره.

لقد آتت هذه القرائن ثمارها، وبرزت آثارها، فصار لها حضور مشهور لدى مفسري النص القرآني، الذين عنوا بها منذ وقت مبكر؛ تفصيلاً وتأصيلاً وتطبيقاً، فجازوا فضل السبق في ذلك كله.

كان السياق من أبرز هذه القرائن، حيث وقف المفسرون على دوره المتميز، فأنزلوه منزلته اللائقة به، وسنعرض لها ونحن نكشف عن معنى السياق، وعن منزلته ومجالاته وغاياته، في بحث يدور حول أثر السياق القرآني في الكشف عن المعاني، وسيكون هذا كله في نطاق ما يتسع له المقام من بسط وضرب للأمثلة، في محاولة لإبراز ما اندثر، وجمع ما انتثر من مسائل تتصل بالسياق، لعلها تعطي بمجموعها صورة واضحة المعالم، وتعين علي الإفادة منه دون إفراط أو تفريط، وهي خطوة سبقتها من غيري خطوات متناثرات؛ سوغت لي البحث في هذا الموضوع.

وعليه يمكن إثارة التساؤل التالي :

ما هو دور السياق لدى المفسرين في تحديد المعنى من خلال تفسير سورة يوسف ؟

وما هي آياته التي انتهجها المفسرون في ذلك؟

ولإجابة عن هذه الإشكاليتين اقترحنا خطة نحاول من خلالها تقديم إجابات عن هذه الأسئلة: فبعد المقدمة، خصصنا فصلا أولا للسياق تعرضنا فيه لمفهومه وأنواعه، وتحدثنا عن مفهوم السياق وأنواعه في المبحث الأول منه، عرضنا كذلك للسياق عند المفسرين والأصوليين والنحويين، وفي الدرس اللغوي الحديث في المبحث الثاني من نفس الفصل، وفصلا ثانيا بعنوان دراسة لدور السياق في توجيه المعنى عند المفسرين(سورة يوسف أنموذجا) ذكرنا فيه بداية لمحة عن سورة يوسف في مبحث أول ثم قدمنا نماذج توضح الدور الذي يلعبه السياق في المعنى، وبعد هذا أنهينا الدراسة بخاتمة فيها زبدة ما قيل.

ويرجع السبب في اختيارنا الموضوع إلى الإهتمام بالجانب التداولي ومحاولة منا لربطه بالقرآن الكريم. كما وقع اختيارنا على سورة يوسف لما تمثله في حياة كل مسلم وما تحتويه من العبر من جهة ومن جهة أخرى كون السورة تكفي لإظهار ودراسة الدور الذي يلعبه السياق في تحديد المعنى .

وتعد قلة المصادر والمراجع التي تتناول موضوع السياق وربطه بالقرآن الكريم أكبر صعوبة تلقيناها أثناء الدراسة والبحث.

وكان المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي الذي يوافق طبيعة الموضوع ويخدمه.

وقد اعتمدنا في هذه المذكرة على بعض المصادر والمراجع نذكر منها: تفسير القرطبي(الجامع لأحكام القرآن)، ابن كثير(تفسير القرآن العظيم)، ابن عاشور(تفسير التحرير والتنوير)، محمد إقبال عروي(دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية).

المبحث الأول: مفهوم السياق

1-1 - السياق لغة:

لم يرد السياق بمعناه الاصطلاحي عند القدماء، فكل ما ذكره هؤلاء عن هذه اللفظة هو المعنى اللغوي له⁽¹⁾، وحصروه في ثلاث دلالات، قال ابن دريد (ت321هـ): "السوق: مصدر سقت البعير أسوقه سوقاً"⁽²⁾، وتناول ابن فارس (ت395هـ) مادة (سوق)، فقال: "السياق: المهر، يقال: سقت إلى امرأتي صداقها سياقاً، أي أعطيتها المهر"⁽³⁾، أما الجوهري (ت398هـ)، فيرى أنّ السياق: نزع الروح، يقال: "رأيت فلاناً يسوق، أي: ينزع عند الموت"⁽⁴⁾.

هذه الدلالات الثلاثة هي الغالبة على اللفظة في كلام العرب، ولعل في الإمكان رد المعنيين الأخيرين إلى المعنى الأول، فدلالة (الترجية)، أي الدفع برفق ملاحظة بوضوح فيهما، وهذا الأمر ظاهر إذا تتبعنا ما ورد من مشتقات مادة (سوق) في القرآن الكريم، إذ وردت جميعاً بمعنى الترجية⁽⁵⁾.

(1) ينظر فوزي إبراهيم، السياق ودلالة في توجيه المعنى، رسالة دكتوراه، كلية الاداب جامعة بغداد، 1996ص 21، 23.

(2) ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي، جمهرة اللغة، بيروت (د-ط)، دار صادر، ط1، 1345 هـ، ص43.

(3) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر (مطبعة البابي الحلبي وأولاده)، ط2، 1972، ص117 .

(4) ابن منظور، لسان العرب، مصر، (د.ط) الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

(5) سورة الأعراف، الآية57، وسورة الأنفال، الآية6، وسورة مريم، الآية86، سورة السجدة، الآية27، سورة فاطر، الآية9، وسورة الزمر، الأيتان71، 73، سورة ق، الآية21، سورة القيامة، الآية30.

ومن معاني السياق عند العرب ما أورده "ابن منظور" (ت911هـ) في معجمه "لسان العرب" حيث أدرج لفظ السياق في مادة "سوق" فيقول: "ساق الإبل وغيرها، يسوقها سوقا وسياقا، وهوسائق وسواق ... وساق إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه ... وساق خلال من امرأته أي أعطاها مهرها، والسياق المهر ... وساق بنفسه سياقا نزع بها عند الموت، ويقال فلان في السياق أي في النزع (أثناء الموت) والسياق نزع الروح" (1).

السياق اصطلاحاً:

على الرغم من تناول السياق في التراث العربي، إلا أن البلاغيين والمفسرين والأصوليين استعملوه استعمالات متنوعة ومتعددة، واعتمدوا عليه للاستفادة منه في فهم النصوص وبنائها (2).

إلا أن بعض الدارسين المحدثين كإبراهيم فتحي يرى بانه بيئة الكلام ومحيطه وقراءته (3).

وقد ورد في بعض المعجمات المحدثّة، أن سياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري

عليه (1).

(1) ينظر ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، 1988، ج3، ص242.

(2) ينظر ردة الله بن ردة، دلالة السياق، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ. ص41.

(3) إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدّين، صفاقس، الجمهورية التونسية، 1986. ص201.

وقد أورد "جميل صليبا" للمصطلح ترجمتين: هما "contexte" في الفرنسية، و "context" في الإنجليزية، وقال إن: "سياق الكلام أسلوبه ومجراه، نقول وقعت هذه العبارة في سياق الكلام، أي جاءت متفقة مع مجمل النص، وللتقيد بسياق الكلام في تفسير النصوص وتأويلها فائدة منهجية، لأن العبارة تختلف باختلاف مجرى الكلام، فإذا شئت أن تفسر عبارة من نص وجب عليك ان تفسرها في سياق ذلك النص"⁽²⁾.

يقول عبد الهادي ظافر الشهيري: يمكن القول بدءا ان مصطلح السياق يطلق على مفهومين:

1- السياق اللغوي.

2- سياق التلفظ أو سياق الحال، أو سياق الموقف.

3- فالمفهوم الاول كان المفهوم الاكثر شيوعا في البحث المعاصر، فهو الجواب البدهي عندما

يتبادر الى الذهن السؤال الهام وهو: ماهو السياق؟ انه حسب تلك الاجزاء من الخطاب التي

تحفو بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناه وسوف ندعو هذا التعريف

بالتعريف النموذجي. ويتضح في هذا المفهوم انه تجسيد لتلك التتابعات اللغوية في شكل

الخطاب من وحدات صوتية و صرفية ومعجمية وما بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية .

وان كان هذا تعريفا صحيحا للسياق في احد جوانبه الا انه لايمثل في عمومه الا التعريف

الضيق، فقد غدا مصطلح السياق من المصطلحات الشائعة والمؤثرة في الدرس اللغوي

(1) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، الجزء الأول، د.م، (د.ط)، ط1، د.ت، ص 465.

(2) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ج1، ص 681.

الحديث ،منذ ابتدعه مالمينوفسكي ليتسع مفهوم السياق خصوصا في الدراسات التداولية ،بما انها تعده اساسا من اسسها المكيئة ولهذا تجاوز الباحثون التعريف النموذجي الى التعريف الارحب للسياق فاصبحت تعرف مجموعة الظروف التي تحف حدوث فعل التلطف بموقف الكلام وتسمى هذه الظروف في بعض الاحيان بالسياق¹.

3/أنواع السياق :

يعد بریت أن تصنيف السياق هو أيسر الطرق لتصنيف التداوليات إلى عدة أنواع ، اذ يقسم السياق الى أكثر من قسم، ونتج عن ذلك خمسة أنواع من السياق، يطابقها العدد نفسه من التداوليات وهذه الأنواع هي :سياق القرائم، وهذا مايسمى بنحو السياق، السياق الوجودي،السياق المقامي، سياق الفعل، السياق النفسي.

ومن مميزات هذا التقسيم أنه يغفل الفصل بين ماينتسب الى اللغة وماينتسب الى العناصر التي تؤثر في تشكيلها خطابيا، ولنأت عليها بشيء من الاجمال².

1/ السياق النصي:

لم يتجاوز النحويون في التركيب حد الجملة في تحليلاتهم من البنيويين والتوزيعيين حتى النحو التحويلي عند تشومسكي ومن بعده ، كما لم يتجاوز الباحثون محتوى القضية في التحليل الدلالي في حين قدم نحو النص وتحليل الخطاب بعض الآليات لتحليل

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهيري، استراتيجيات الخطاب ، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ط1، 2004، ص40،41

² المرجع نفسه ، ص42،44.

الوحدات اللغوية الكبرى مثل العبارة، أجزاء الخطاب في المحادثات، المحاور، وكذلك النماذج الحجاجية في بعض نماذج الخطاب مثل الخطاب السياسي، لقد كشفوا عن علاقات تتجاوز الاحالة بين الجمل مثلا فأعادو بناء تماسك النص بوصفه نظاما أكبر في النحو ليتمكن المرسل اليه من اكتشاف دلالة هذه الوحدات الكبرى ولكن يبدو أنه من الصعب تفسير التماسك النصي كصنف نحوي صرف وعليه فمن المهم النظر اليه من خلال علاقته بالاجتماعية النفسية .

2/السياق الوجودي :

يدعي الفلاسفة والمناطقة على عكس البنيويين مثلا أن التتابعات اللغوية أو السميائية تكتسب معانيها من خلال علاقاتها بمراجعها، ويتضمن هذا السياق المرجعي بطبعه (عالم الأشياء، حالاتها، الأحداث) والتي ترجع اليها التعبيرات اللغوية، ويتم الانتقال من الدلالة الى التداولية حالما يدرك أن المرسل والمرسل اليه وكذلك موقعهم الزماني، المكاني هي مؤشرات للسياق الوجودي وعندما توضع هذه الاشارات في الاعتبار فانه يمكن وصف معنى التعبيرات اللغوية اشاريا بمايقود الى صنف اشاري للدلالة .

3/السياق المقامي :

في حين يعبر المرسل عن مكونات العالم الحقيقي أو عن العالم الممكن بتعبيرات لغوية(سيميائية) فان السياق المقامي يوفر جزئيا بعض العوامل أو المحددات التي تسهم

في تحديد معاني التعبيرات اللغوية والمقامات بوصفها سياقاً هي صنف متأصل في المحددات الاجتماعية، فقد يكون هذا السياق اطاراً للمؤسسات (محكمة ، مدرسة ...) أي لأوضاع الحياة اليومية (مطعم ، تسوق) إذ تُوَطر هذه المحددات خصائص المحادثة في النصوص الكبرى وكذلك في بناء الخطاب الاقناعي والحجاجي من خلال قوانين وأنظمة معينة، ويقدم علماء اللغة الاجتماعيين تصنيفاً ودراسة للسياقات المؤسساتية والدور الذي يمكن أن يلعبه كل من طرفي الخطاب فيها .

4/سياق الفعل:

لاتكاد تنحصر المقامات التي تحدد دلالة التتابعات السيميائية ولذلك تعد الأفعال اللغوية أصنافاً جزئية من السياق المقامي، وميرى أوستين ان التسلسلات اللغوية تعبر عن أفعال بل هي الأفعال نفسها فلم يعد هناك جمل وصفية بحتة ذات معنى ثابت دون أن تكون منطوقات أدائية إذ يتبين فب مراحل متأخرة من نظرية أوستين أن كل الجمل تقال ليكون لها قوة تسمى القوة الانجازية، ويلح أوستين على دور العرف الاجتماعي أي التعاقدية لانتاج اللغة من قبل المرسل في المجتمع وقد وافقه ديكره فيما بعد مؤكداً على أن هناك شروطاً لاعتبار اللغة فعلاً، خاصة الأفعال الانجازية مما يمكن معه القول ان اللغة محكومة بمعايير محددة.

5/السياق النفسي:

ان اعتبار الخطاب فعلا وأن الفعل اللغوي قصد مشروط يقود الى دمج الحالات الذهنية والنفسية في نظرية تداولية اللغة، لتصبح المقاصد والرغبات حالات ذهنية مسؤولة عن برنامج الفعل والتفاعل، وهذه الحالات هي مناط اهتمام الوصف والتفسير التداولي بوصفها السياق النفسي لانتاج اللغة وفهمها، كما تقتضي صلتها بالتداولية من خلال الاقتصار على ذلك الجزء من النضاط الذي يجسد ذاته فقط من خلال الأنظمة النحوية المحددة في انتاج التسلسلات اللغوية وفهمها واجتناب الحالات الكثيرة التي لاتتنمي الى المنهج التداولي مثل اكتساب اللغة والأساس البيولوجي وغيرها.

واجمالا فهذه الأنواع من السياقات متداخلة ومتراطة فلا يستغني أي منها عن الأنواع الأخرى وبهذا يصبح المنهج التداولي كافيا لأنه يشير الى وجهات نظر معينة وتوجه معروف نحو اللغة والعلامات الأخرى. ومن البديهي أن السياق بهذا التنوع يضيق ويتسع وينعكس على الخطاب في شكله والقصد منه وتأويله، فالسياق هو دليل المرسل في اختيار استراتيجيته الخطابية فقد يضيق مرة ويتسع مرة أخرى.

المبحث الثاني: السياق عند المفسرين والأصوليين والنحويين والدرس اللغوي الحديث:

لم يعد خافياً أن أفكار السياق الأولى وجدت في الثقافة العربية الإسلامية، وأنها قد لقيت عناية فائقة من لدن أهل اللغة، إلا أن جهدهم ذاك لم يصاحبه تنظير بحت يصل إلى حد وضع نظرية منسقة للسياق وعناصره.

ويبدو أن سر التفاتهم إلى " السياق " يعود إلى أن النص القرآني الكريم كان في منشأ تكوينه مجموعة من النصوص، ولم يكن نصاً واحداً، فلم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة، بل نزل مجزئاً على مدار بضع وعشرين سنة. ثم أدمجت تلك النصوص في نص واحد. فضلاً عما في القرآن من آيات داعية إلى النظر في العالم والكون والإنسان، ومحاولة قراءة قدرة الله فيهم⁽¹⁾.

لقد ولد هذان السببان عقلاً رابطاً بين الأشياء، وإلى هذا العقل الرابط يمكننا أن ننسب بذور فكرة السياق عند المسلمين. وسرعان ما لفتت هذه البذور السياقية الانتباه لدى العلماء في مختلف فروع الثقافة العربية الإسلامية، فإذا الجميع يسهمون كل في مجال تخصصه، في ترسيخ المنهج السياقي، ممارسة غير مسماة، وهذا لا يمنع من وجود طائفة منهم، تنبعت إلى أهمية السياق وعملت على تطبيقه بوعي، بل إنها استعملت مصطلح (السياق) بمعنى مقارب نسبياً لما نستعمله فيه اليوم، وهو سرد الكلام وأسلوبه الذي يجري عليه⁽²⁾.

(1) ولعل في الإمكان أن نضع طبيعة ذهن العربي المتوقد، في الجاهلية وما بعدها، إلى جنب هذين السببين.

(2) ينظر الشافعي محمد بن إدريس الرسالة.. تحقيق احمد شاکر، القاهرة (د.ط) دار التراث، د.ت.ص 52.

لقد تنبّهت طائفة من الباحثين العرب المحدثين لمسألة سبق العرب والمسلمين للدرس اللغوي الحديث في اكتشاف بذور فكرة السياق، فعملوا على إزاحة الستار عن تلك الممارسات السياقية التي ما برحت تكون جزءاً عملياً من جهد العلماء في استكناه مسائل موضوعاتهم. وفيما يأتي عرض لإسهامات قسم من رجالات كل فن في مجال تطبيق تلك الأفكار، مبنيةً على أساس السبق في النشأة، وعلى وضوح تلك الأفكار فيها.

1-3- السياق عند المفسرين:

إن الدراسات القرآنية، كانت البيئة التي أنضجت في أحضانها فروع الدراسات اللغوية والبلاغية كلها، فضلاً عن أن تفسير القرآن، وحتى المبكر منه، كان يطبق الأفكار السياقية بشدة ووضوح⁽¹⁾؛ ومن أجل هذا ارتأيت أن يوضع (علم التفسير) على رأس قائمة العلوم العربية .

إن من يقرأ في الأصول التي التزم بها المفسرون في عملهم تتكشف له أصالة هذه الفكرة في تراثنا العربي الإسلامي، وسبق تطبيقها فيه على التنظير اللساني الحديث بأكثر من ثلاثة عشر قرناً. ونحن نستطيع أن نتتبع تبلور مجموعة من العناصر التي تكون لنا هيكل هذا المنهج، عند علماء التفسير، وفي مقدمتها: الأنماط التي استحالت عندهم شروطاً، وضعوها للمفسر لاختبار

(1) حمودة طاهر سليمان، دراسة المعنى عند الأصوليين، الإسكندرية، (د.ط)، الدار الجامعية، د.ت، ص221.

كفايته، والتي تتمثل في إتقانه لمجموعة علوم تشبه إلى حد كبير مراحل التحليل في نظرية (السياق)⁽¹⁾.

لقد اشترط المفسرون في المفسر أن يكون ملماً بالقراءات، فبها تعرف كيفية النطق بالقرآن، وبها تترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض⁽²⁾، وهذا هو التحليل الصوتي في الداسات اللسانية الحديثة. وأما التحليل الصرفي فقد اشترطوا في المفسر إتقانه التصريف، لأن به تعرف الأبنية والصيغ، قال ابن فارس: ومن فاته علمه فاته المعظم⁽³⁾، ومعرفة الاشتقاق، لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين، اختلف المعنى باختلافهما⁽⁴⁾. ويتصل بالتركيب إتقانه لعلوم، النحو والمعاني والبيان والبديع، أما النحو فلأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره⁽⁵⁾. وأما المعاني والبيان والبديع فلأنه يعرف بالأول، خواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى. وبالتالي خواصها من حيث اختلافها، بحسب وضوح الدلالة وخفائها. وبالتالي وجوه تحسين الكلام⁽⁶⁾، ويتصل بالمعجم ما يسمونه بعلم اللغة، وهو يعني عندهم متن اللغة، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع⁽⁷⁾.

(1) ينظر حمودة طاهر سليمان المرجع السابق ، ص223.

(2) ينظرالسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج02، د.م، (د.ط)، دار الندوة الجديدة، د.ت، ص181.

(3) ينظرالمصدر نفسه، ج2، ص180.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص181.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص180.

(6) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص181.

(7) المصدر نفسه، ج2، ص180.

ويتصل بسياق الحال، معرفة أسباب النزول، وهي الأحداث والوقائع الملازمة للنص القرآني⁽¹⁾. وملاحظة هذا العامل مهم وضروري في الوقوف على معنى الآية، وإزالة الإشكال عنها، وقد نبه عليه دارسو النص القرآني، قال الواحدي (ت468هـ): "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان سبب نزولها"⁽²⁾. وقال ابن دقيق العيد (ت702هـ): "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"⁽³⁾. وقال ابن تيمية (ت728هـ): "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"⁽⁴⁾. وينضم إلى سبب النزول، معرفة (المكي والمدني).

ونجد عند المفسرين إتفاته هامة إلى مراعاة "السياق الأكبر" للنص اللغوي، وذلك باشتراطهم في المفسر استحضار النص القرآني كله عند تفسير بعضه، فمن أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه في مكان، فقد فسر في موضع آخر، وما اختصر منه في مكان فقد بسط في موضع آخر منه⁽⁵⁾. ثم نراهم يضيفون إلى استحضار النص القرآني جميعه

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المصدر السابق، ج2، ص181.

(2) الواحدي أبو الحسن علي بن احمد النيسابوري، أسباب النزول، دراسة وتحقيق السيد الجميلي، د. م (د. ط) دار الكاتب العربي، 1990، ص03.

(3) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، لباب النقول في أسباب النزول، بيروت، د.ت، المكتبة الشعبية، ط2، د.ت ص13.

(4) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص32.

(5) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج2، ص175.

الاستعانة بالسنة الشريفة، وهي إلتفاته هامة، كون السنة الصحيحة مكلمة للقرآن وتكونان وحدة واحدة، تفسر ثانيتهما الأولى⁽¹⁾.

إن هذه الشروط إضافة إلى العلوم الأخرى المشترطة في المفسر، وهي: معرفة أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه، والناسخ والمنسوخ⁽²⁾ تكشف لنا عن إدراك المفسرين الواعي لعناصر السياق المقالية والمقامية، وآثرها في الكشف عن المعنى، والوصول إلى الوجه الصحيح منه⁽³⁾.

حيث استعان المفسرون بالسياق واهتموا به اهتماما كبيرا باعتباره وسيلة مهمة لاستجلاء المعنى المقصود للشارع الحكيم ب من النص القرآني المنفرد بسمات خصوصية عن باقي النصوص، إذ هو المصدر الأول للعقيدة والأحكام الإسلامية، وهو بهذه الاعتبارات اكتسب ثوب الجلال والتقديس⁽⁴⁾.

وبما أن الصحابة رضوان الله عليهم على علم بالظروف التي تنزلت فيها الآيات أو وردت بشأنها الأحاديث، اعتمد المفسرون وشرح الحديث على فهمهم للحديث أو للآية، وهذا ما أدى إلى نشأة مدرسة التفسير بالمأثور التي اعتمدت على الأخذ من هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم⁽⁵⁾.

1-4- السياق في علم أصول الفقه

(1) المرجع نفسه، ص176.

(2) الاتقان، مرجع سابق، ص 180، 181.

(3) صاحب أبو جناح، السياق في الفكر اللغوي عند العرب، (الأقلام العدد: 3 - 4، (آذار - نيسان / 1992)، ص 117.

(4) ردة الله بن ردة، دلالة السياق، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ، ص103.

(5) ينظر ردة الله بن ردة، دلالة السياق، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ، ص105.

يبدو عند الأصوليين تمثل واضح لعناصر السياق اللفظية والاجتماعية، وأثرهما في توجيه المعنى. وهو تمثل يتميز عما وجدناه عند المفسرين بجوانب كثيرة تتصل بما عني الأصوليون ببحثها.

لقد فطن الأصوليون إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأنها نظام من العلامات أو الرموز، وأن للألفاظ معانٍ عرفية، وإذا كانت الدلالة الحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته فإنه لا بد للكشف عن المعنى من معرفة قصد المتكلم بالقرائن المختلفة⁽¹⁾؛ ذلك لأن دلالات الألفاظ ليست لذاتها بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته⁽²⁾.

لقد أصبحت الإشارة إلى السياق واضحة عند الأصوليين، وهذا ما نلمسه في أقوالهم، التي نقتبس بعضاً منها، فالشافعي يستخدم لفظة (السياق) بمعنى سرد الكلام وأسلوبه الذي يجري عليه. وهو معنى مقارب للمعنى الإصطلاحي الذي نقصده في عصرنا هذا، وذلك في قوله: "وأن فطرته [أي اللسان العربي] أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً ويراد به العام الظاهر. ويستغني بأول هذا منه عن آخره، وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاماً ظاهراً يراد به الخاص، وظاهراً يعرف في سياقه أنه يراد غير ظاهره"⁽³⁾.

(1) الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج 1، ص 18.

(2) المرجع نفسه، ص 18.

(3) محمد ابن ادريس الشافعي، الرسالة مرجع سابق ص 52.

أما الغزالي (ت505هـ)، فنسوق له هنا نصاً صريحاً على اعتبار الأصوليين للسياق بمعناه الواسع في الكشف عن الدلالة وإجلائها بصورة دقيقة، ويدل على معرفتهم لعناصره اللغوية والاجتماعية، إذ إنه تحدث عن وسائل فهم خطاب الشارع فيذكر أن: "طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة ... وإن تطرق إليه الإحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة إما لفظ مكشوف ... وإما إحالة على دليل العقل ... وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها، فينقلها المشاهد من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة، أو مع قرائن من ذلك الجنس، أو من جنس آخر حتى توجب علماً ضرورياً يفهم المراد، أو توجب ظناً ... وعند منكري صيغة العموم يتعين تعريف الأمر والاستغراق بالقرائن"⁽¹⁾، وهو في ذلك يشير إشارات واضحة إلى أنواع السياقات، فقله: "إن طريق فهم المراد يتوقف على تقدمك المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة"، إشارة واضحة إلى دور سياق النص والسياق الثقافي في إيانة المعنى، فإن تعذر ذلك عمد إلى السياق الأكبر أو سياق الحال.

وهذه الحقيقة كانت واضحة لدى الشاطبي (ت790هـ)، فقد تأكدت لديه أهمية الوعي بالظروف والملابسات المحيطة بالنص فضلاً عما توحى به الدلالات اللغوية لمفرداته ومكوناته العامة. وانتهى به التأمل والبحث إلى أن قال: "أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهو ما يقرره بوضوح علم المعاني والبيان ... ومن هنا لا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق

(1) أبو حامد الغزالي، المستصفي من علم الأصول، ج1، ص337، 340.

النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه، لا بحسب مقصود المتكلم، فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس المتكلم، فعما قريب يبدو له منه المعنى المراد⁽¹⁾.

فالشاطبي في ذلك، فضلاً عن تأكيده على وحدة النص، وهي القضية المحورية عنده في ذلك يرى أن بحث الدلالة المعجمية للفظ ليس سوى مرحلة سابقة من مراحل دراسة المعنى من خلال السياق بشقيه اللفظي والحالي⁽²⁾.

ولعلنا نصيب وضوحاً أكبر في فهم السياق لو تناولنا نص ابن القيم (ت751هـ)، الذي يعبر فيه عن أهمية السياق في كشف الدلالة فيقول: "السياق يرشدنا إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظراته"⁽³⁾، وهكذا يحدد ابن القيم لا مجرد أهمية السياق في فهم النص القرآني بل جوهريته بالنسبة إليه، إنه يرشدنا إلى تبيين المجمل، فما أجمل منه في مكان فقد بسط في موضع آخر، وهو يدلنا على أي من جوانب معنى اللفظ هو المراد، بفعل القرائن المحيطة، اللفظية منها و الحالوية ثم إنه يرشدنا إلى تخصيص العام وجعله محصوراً في فئة معينة ويساعد على تقييد المطلق.

(1) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004، ج3، ص271.

(2) السياق في الفكر اللغوي عند العرب ص117.

(3) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج4، ص9، 10.

وابن القيم في النص السابق يدل على وعيه بأن فهم النصوص الدينية يرتد إلى فهم السياق، ومما يؤكد هذا الوعي، عند ابن القيم، قوله - في النص السابق كذلك -: "وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظراته"، أي أن العلم بالسياق يؤمن الباحث من المغالطة في الدعوى، كما يؤمنه من المكابرة في الرجوع إلى الحق أو الهدى إذا استبان له.

وبعد فإنه يطول بنا المقام إن نحن أخذنا بسرد أنماط تحقق السياق عند الأصوليين، وأكتفي بهذه الإشارات إلى أهمية استخدامه عندهم. ومن رغب في الإستزادة والوقوف على تطبيق أكبر للسياق فعليه بكتاب الغزالي (المستصفى من علم الأصول)، وكتاب الآمدي (الإحكام في أصول الأحكام)، وكتاب الشاطبي (الموافقات في أصول الشريعة)، ففي كل غنى وبيان يصل متتبعها إلى أن الأصوليين قد وضعوا شيئاً من التنظير للسياق قبل المدرسة الألسنية الإجتماعية بقرون عديدة.

ثانياً : السياق في علوم النحو واللغة والبلاغة

إن من يقرأ كتب النحاة، بعناية، يجد فيها إتفادات سياقية مهمة، إذ نراهم يحللون التراكيب اللغوية مراعين في ذلك الجمل السابقة واللاحقة ودورهما في الكشف عن الوجه الإعرابي، فضلاً عن حال المتكلم والمخاطب والظروف الملازمة مما يساعدهم في التحليل الدقيق للكلام.

وبشيع هذا الأمر في أقدم مدونة وصلت إلينا في النحو، فمن يقف على تحليلات سيبويه (ت180هـ)، وقفة إنعام وتبصر يجد أنه يكشف في تحليلاته عن كل ما يحيط بالنص من

ملايسات وظروف سواء ما يختص بحال المتكلم أو المخاطب أو المشاركين في الحدث اللغوي، مكتفياً بالوصف دون التسمية.

ودليل ذلك، عنده، أنه يتوقف عند بيت امرئ القيس:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني، ولم أطلب، قليل من المال

لقد كان مفروضاً عليه، لو حكم سيبويه مقاييسه من ضرورة إعمال الفعل الثاني في باب التنازع، أن تكون كلمة (قليل) منصوبة على المفعولية، وأن يقدر في الفعل الأول ضمير فاعل لكن سيبويه يخرج المثال كله من باب التنازع استناداً إلى سياق المعنى لا في البيت فحسب، بل في القصيدة قال: "فإنما رفع، لأنه لم يجعل القليل منصوباً، وإنما كان المطلوب عنده الملك وجعل القليل كافياً، ولو لم يرد ذلك ونصب فسد المعنى"⁽¹⁾.

ويذكر سيبويه أن المتكلم يحذف جزءاً من كلامه، إذا بان للمخاطب ما يدل على هذا المحذوف مما سبق من كلام المتكلم، ومن هذا السبيل ما جاء في الكتاب: "من كذب كان شراً له، يريد: كان الكذب شراً له، إلا أنه استغنى بأن المخاطب قد علم أنه الكذب لقوله (كذب) في أول حديثه"⁽²⁾.

(1) كتاب سيبويه، ج1، ص79.

(2) كتاب سيبويه، ج2، ص297.

ثم إنه يعيد الحدث الكلامي إلى مسرحه وظروفه، وما عليه المتكلم ليصل من خلال ذلك كله إلى ما عناه، بواسطة التحليل، فتراه يقول عن جملة: زيداً "وذلك أن ترى رجلاً يريد أن يوقع فعلاً أو رأيته في حال رجل قد أوقع فعلاً ... فتقول: زيداً، تريد: اضرب زيداً، أو يضرب زيداً"⁽¹⁾.

وأحياناً يعالج سيبويه تراكيب لغوية خارجة عن الأصل المتعارف عليه، فيجد لها من سياق الحال المتكلم أو الموقف الكلامي مسوغاً لهذا الخروج، فمن المعروف أن الاسم لا يظهر بعد الإضمار، فلا يجوز أن تقول لرجل من إخوانك ومعرفتك: أنا عبد الله منطلقاً إلى حاجتك. ولكن سيبويه يذكر أن سياق حال المتكلم يسوغ هذا الخروج كما تقول: "إني عبد الله، مصغراً نفسه لربه"⁽²⁾.

أو أن الموقف الكلامي وظروفه يقتضي هذا الخروج، وذلك أن رجلاً "لو كان خلف حائط أو موضع تجهله فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك، كان حسناً"⁽³⁾.

بل تختلف العبارة في الكلام على وفق حال المخاطب من الإقبال والإنصراف، فإذا قصدت إلى خطاب رجل وهو غير مقبل عليك، وغير منتبه إليك فقلت: يا فلان أنت تفعل، فتبدأ بالنداء حتى يقبل عليك، أما "إذا كان مقبلاً عليك بوجهه، منصتاً لك، فتترك: يا فلان حين قلت: أنت تفعل استغناءً بإقبالة عليك"⁽⁴⁾.

(1) سيبويه، المصدر السابق ج1، ص257، و ج1، ص128 وج1، ص253، 258، والأصول لابن السراج، ج2، ص247.

(2) سيبويه، المصدر السابق، ج2، ص80، ص141.

(3) المصدر نفسه، ص81.

(4) سيبويه المصدر السابق، ج1، ص244.

ويتناول سيبويه هذه الجملة: رأيت زيداً الصالح، داعياً حال المتكلم، فيقول: "لا تستقم هذه

الجملة، إذا كان المتكلم أعمى"⁽¹⁾.

ويطالعنا المبرد (ت285هـ) في إلتفاتات سياقية، فنجده في هذا الشأن يقول في الكلام على

حذف المبتدأ: (ولو قلت على كلام متقدم: عبد الله أو منطلق، أو صاحبك أو ما أشبه هذا لجاز

أن تضرر الابتداء إذا تقدم من ذكره ما يفهمه السامع، فمن ذلك أن ترى الجماعة يتوقعون الهلال،

فقال قائل منهم: الهلال والله، أي هذا الهلال، وكذلك لو كنت منتظراً رجلاً فقلت: زيد، جاز على

ما وصفت لك)⁽²⁾.

وبعد المبرد تطالعنا شخصية كانت لها نظرات صائبة في مجال التحليل اللغوي، وهو ابن

جني (ت392هـ) فالقراءة المتأنية في صفحات كتابه المهم (الخصائص) وبالتحديد في الباب الذي

عقده، بعنوان: "باب في أن العرب أرادت من العلل و الأغراض ما نسبناه إليها، وحملناه عليها"⁽³⁾،

هذه القراءة ستظهر لنا أنه كان رائداً في مجال التحليل السياقي، فقد اهتم بسياق الحال وتحليل

الحدث الكلامي: صوتياً، و صرفياً، ونحوياً، من أجل كشف الدلالة اللغوية. إلا أن نظرات هذا

العالم، شأنه شأن زملائه في التراث، قد جاءت متفرقة، تفتقر إلى تنظيم رابط لها في إطار يجمعها

في شكل نظرية. فإذا ما حاولنا لم أشتاتها، تبين لنا منها وعي ابن جني بسياق الموقف الكلامي.

دليل ذلك النص الآتي الذي جاء مدلاً على أن ما يشاهده من أحوال المتكلمين وملاحق قسماتهم،

(1) سيبويه المصدر نفسه، ج1، ص40.

(2) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، بيروت، (د.ط)، عالم الكتب، دت، ج4، ص129.

(3) ابن جني الخصائص، تحقيق محمد النجار، ج01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص239، 253.

ممن أتاحت له رؤيتهم في أثناء حديثهم، كما أن استعانتهم بما نقله العلماء من أحوال المتكلمين وسجلوه عن لم يحضر حديثهم، يساعده في استبيان ما قصدت إليه العرب من حديثها أو شعرها حيث يقول: (والذي يدل على أنهم قد أحسوا ما أحسنا، وأرادوا ما نسبناه إليهم من إرادته وقصده شيئان: أحدهما حاضر معنا، والآخر غائب عنا، إلا أنه مع أدنى تأمل في حكم الحاضر معنا. فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها: من استخفافها شيء أو استنقاله، وتقبله أو إنكاره، والأنس به أو الاستيحاش منه والرضا أو التعجب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس)⁽¹⁾. فهو في ذلك يشير إلى سياق الحال ولدور الحدث الغير كلامي للمشاركين، بل أن كلام ابن جني أكثر وضوحاً وتفصيلاً وعمقاً حين يقول: "الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس"، فكأن هذه التصرفات التي تبدو، والملاح التي تتشكل على الوجه تصور ما في النفس تصوراً لا شك فيه، فكأنها شاهد يقسم على صدق قوله حتى لا يترك شبهة على ما يقول. ثم يردف ابن جني، مستشهداً، ببيت من الشعر قاله نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي⁽²⁾:

تقول - وصكت وجهها بيمينها - أبعلي هذا بالرحى المتعاس

ويعلق على هذا البيت بما يندر أن نجد مثله عند غيره، فيقول: "قلو قال الشاعر حاكياً عنها:

أبعلي هذا بالرحى المتعاس - من غير أن يذكر صك الوجه - لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة

(1) ابن جني، المصدر نفسه ص245.

(2) ابن جني، المصدر السابق، ص247.

منكرة، ولكنه لما حكى الحال فقال: "وصكت وجهها" علم بذلك قوة إنكارها وتعاضم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين. وقد قيل: "ليس المخبر كالمعاین". ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله "وصكت وجهها"، لم نعرف به حقيقة تعاضم الأمر لها⁽¹⁾. فهو في ذلك يشير إلى جانبي المعنى، المقال، والمقام، فيشير إلى المقام باللام بقوله: "أبعلي هذا بالرحى المتعاس". ويشير إلى المقام "الحدث الغير كلامي" بقوله: "وبمثله قول الشاعر: وصكت وجهها بيمينها".

وخير ما يمثله ويعبر عنه قول ابن جني: وكذلك قول الآخر:

* قلنا لها قفي لنا قالت: قاف *

فلو نقل إلينا هذا الشاعر شيئاً آخر من جملة الحال فقال مع قوله: (قالت قاف): (وأمسكت بزمام بعيرها) أو (عاجته علينا) لكان أبين لما كانوا عليه، وأدل على أنها أرادت ووقفت، أو توقفت، دون أن يظن أنها أرادت: قفي لنا ! أي يقول لي: قفي لنا ! متعجبة منه، وهو إذا شاهدها وقد وقفت علم أن قولها (قاف) إجابة له، لا رد لقوله وتعجب منه في قوله (قفي لنا)⁽²⁾، فابن جني قد جعل إمساك زمام البعير، وهو الحدث غير الكلامي وثيق الصلة بكلامها، قرينة يزول معها الإبهام، ويتضح موقفها و استجابتها، ودليلاً يقطع بعدم إرادة تعجبها وإنكارها الذي قد يتبادر إلينا من قولها (قاف).

(1) المصدر نفسه، ص245،246.

(2) المصدر نفسه، ص246.

ويتقدم ابن جني بنا خطوة أخرى لبيان ما للتعرف على سياق الكلام والظروف التي قيل فيها من ضرورة، فيقول، في أسلوب تمن: "فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو، وابن أبي اسحاق، ويونس، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعي، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة، لا عبارة، لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه، غير متهم الرأي والنحيزة والعقل، فهذا حديث ما غاب عنا فلم ينقل إلينا، وكأنه حاضر معنا، مناج لنا"⁽¹⁾.

أما عن ملامح فكرة السياق في البلاغة العربية فإنه من المعروف أن تحليلات البلاغيين للكلام العربي الفصيح والبليغ، تقودنا إلى الاعتراف بأنهم كانوا يعون دور السياق في استكناه المعاني الحسنة في التعابير الرشيقة. يتضح ذلك إذا علمنا أن البلاغة قد قدمت لدراسة المعنى الاجتماعي (المعنى الدلالي) فكرتين تعتبران اليوم من أنبل ما وصل إليه علم اللغة الحديث في بحثه عن المعنى الاجتماعي الدلالي، و أولى هاتين الفكرتين، فكرة المقال و الثانية فكرة المقام. وأنبل من ذلك أن علماء البلاغة قد ربطوا بين هاتين الفكرتين بعبارتين شهيرتين أصبحتا شعاراً

(1) ابن جني، مصدر سابق، ص 248.

لهم في البلاغة، وهدفها الأساس في اختيار الكلام، ومعياراً لصحته وجودته، والعبارة الأولى (لكل مقام مقال). والعبارة الثانية: (لكل كلمة مع رصيفتها مقام)⁽¹⁾.

فأما العبارة الأولى، فتؤكد أن استخراج المعنى من المقال فحسب لا بد من أن يشتمل على إغفال معيب لأهم عنصر من عناصر المعنى هو المقام أو الظرف الذي حدث فيه المقال.

وأما العبارة الثانية فتلخص الصلة بين (ظاهر التضام) في اللغة العربية وبين المعنى اللغوي الدلالي الاجتماعي، إذ أن أقسام المقامات الاجتماعية ترتبط بتعابير يتم فيها التضام بين الكلمات وفقاً لاختلاف المقام. فهاتان العبارتان بما خلفه لنا البلاغيون في تراثهم الثمين تعتبران من نتائج المنارات الفكرية في دراسة اللغة في الغرب المعاصر⁽²⁾. يقول ابن خلدون (ت808هـ) في حديثه من علم البيان من علم اللسان العربي: "وهذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، فهو من العلوم اللسانية؛ لأنه متعلق بالألفاظ وما تقيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني، وذلك أن أمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند ويسند إليها و يفضي بعضها إلى بعض، والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والافعال والحروف، وإما تمييز المسندات من المسند إليها والازمنة، ويدل عليها بتغير الحركات من الاعراب وأبنية الكلمات، وهذه كلها هي صناعة النحو، ويبقى من الامور المكتتفة بالواقعات المحتاجة للدلالة احوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام

(1) تمام حسان، العربية معناها ومبناها، بغداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الشؤون الثقافية العامة (مشروع النشر المشترك)، 1988، ص 20.

(2) المرجع نفسه، ص 20، 21.

الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية إفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب؛ فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به يعد كمال الاعراب والابانة⁽¹⁾.

(1) ابن خلدون، المقدمة، بيروت (د.ط)، دار القلم، ط1، 1978، ص558.

ثالثاً - السياق في الدرس اللغوي الحديث.

تقدم (فيرث)⁽¹⁾ في النصف الأول من القرن الماضي برؤية جديدة في مفهوم الدلالة في علم اللغة الحديث، تبنته فيما بعد المدرسة الألسنية الاجتماعية، والتي كان أحد أبرز رجالها، وأساس هذه الرؤية أن معنى الحدث اللغوي ليس هو العلاقة الثنائية، التي تربط بين اللفظ المفرد وصورة الشيء الذهنية، وليس رؤية المشار إليه، أو وصفه، أو تعريفه، بل هو متصل من خضوعه للتحليل اللغوي تدريجياً على مستويات اللغة كافة: الصوتية، والصرفية، والنحوية، في ظل سياق الحال⁽²⁾.

وتعود أهمية هذه النظرية الجديدة في علم الدلالة إلى مراعاتها للوظيفة الاجتماعية للغة، فهي أهم شيء بالنسبة للغة، ونتيجة لهذا الموقف نستطيع أن نفهم هذه النظرية في المعنى، فالسلوك اللغوي العادي في عمومها يعد جزءاً من العملية الاجتماعية، أو هو طريق العمل والتنفيذ في الحياة، ولهذا السبب يؤكد أهمية الرجوع إلى المقام (الموقف الكلامي)⁽³⁾.

وهكذا يتعامل (فيرث) مع سياق الحال تعامله مع أي مستوى لغوي آخر، هذا إذا لم يكن السياق هو المظلة التي تحتضن هذه النظم وتتحكم فيها. وهو في نظره كما يذكر بالمر

(1) عالم لغوي إنكليزي كان أستاذاً لعلم اللغة العام في جامعة لندن بين عامي 1944 - 1956 م، ويعد مؤسس المدرسة اللغوية الإنكليزية الحديثة (الألسنية الاجتماعية)،

Linguistics David Crystal:P 245

(2) جون لاينز "ما معنى نظرية المعنى عند فيرث"، ترجمة عبد الكريم مجاهد، آفاق عربية، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة. مج:15، العدد الثاني عشر، 1990ص60.

(3) ينظر كمال محمد، دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، مصر (د.ط) دار المعارف، ط2، 1971 ص174.

(PALMER) في كتابه: (علم الدلالة) أداة من أدوات البحث اللغوي بالطريقة نفسها التي يستخدم بها النظام النحوي مثلاً. وهو لا يتصور علماً للدلالة دون الإحاطة بالسياق، إذ يقول: "إن التصور الأساس في علم الدلالة يقوم على سياق الحال..."⁽¹⁾.

ومعنى الكلمة عند أصحاب هذه النظرية يحدده استعمالها في اللغة أو الطريقة التي تستعمل فيها أو الدور الذي تؤديه، ولهذا لا ينكشف المعنى إلا من خلال تنسيق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات لغوية مختلفة. ويقول أصحاب هذه النظرية، في شرح وجهة نظرهم: (معظم الوحدات اللغوية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها)⁽²⁾. وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لفظي. ومعنى الكلمة وفق هذه النظرية، يتعدل تبعاً لتعدل السياقات التي تقع فيها، أو بعبارة أخرى لتوزعها السياقي⁽³⁾.

وتطرح النظرية منهجاً عملياً في دراسة المعنى له ثلاثة أركان رئيسية، وهي⁽⁴⁾:

أولاً - وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على ما يسمى بالمقام أو (سياق الحال) وحدد (فيرث)

العناصر الأساسية لسياق حال الحدث اللغوي بما يلي:

(1) جون لاينز، علم الدلالة، الفصلان التاسع والعاشر من كتاب "مقدمة في علم اللغة النظري" تر. دمجد الماشطة وآخرون.

دم، (د.ط)، منشورات جامعة البصرة، 1980، ص60.

(2) ينظر عمر أحمد مختار، علم الدلالة، الكويت، (د.ط)، دار العربية، ط1، 1982 ص68، 69.

(3) المرجع نفسه، ص72.

(4) المرجع نفسه، ص69.

1-المظاهر وثيقة الصلة بالمشاركين: أي المتكلمين، والسامعين، وتتضمن أموراً ثلاثة:-

أ-كلام المشاركين أي الحدث الكلامي الصادر عنهم.

ب-الحدث غير الكلامي عندهم، ويقصد به أفعالهم وسلوكهم في أثناء الكلام.

ج-شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي، وكذا من يشهد الكلام من غيرهم، إن وجدوا وبيان

مدى علاقتهم بالسلوك اللغوي، وهل يقتصر دورهم على مجرد الشهود؟ أم أنهم يشاركون في الكلام

؟ والنصوص التي تصدر عنهم.

2-الأشياء وثيقة الصلة بالموقف: وهي العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة والسلوك

اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، نحو مكان الكلام وزمانه والوضع السياسي، وحالة الجو

إن كان لها دخل، وكل ما يطرأ أثناء الكلام مما يتصل بالموقف الكلامي أياً كانت درجته.

3-اثر الحدث الكلامي في المشتركين: كالإقناع، أو الألم، أو الاغراء، أو الضحك ... الخ.

وهكذا أراد (فيرث) أن يجعل لسياق الحال أسساً من أجل اعطائه مظهراً علمياً، ليكون أكثر دقة

وإحكاماً وملائمة لمعالجة المشاكل اللغوية.

ثانياً - وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس، تحديداً دقيقاً، حتى نضمن عدم الخلط بين لغة

وأخرى، أو لهجة و أخرى، أو بين مستوى كلامي ومستوى كلامي آخر، لأن من شأن هذا الخلط

أن يؤدي إلى نتائج مضطربة غير دقيقة، ومن ثم يجب تحديد البيئة الاجتماعية أو الثقافية، التي

تحتضن اللغة المراد دراستها، ذلك أن هناك صلة وثيقة بين اللغة والثقافة التي تحتضنها وهو ما يمكن أن نسميها بالسياق الثقافي وهو أمر هام للفصل بين المستويات اللغوية، كلغة المثقفين، ولغة العوام، أو لغة الشعر و لغة النثر.

ثالثاً - وجوب النظر إلى الكلام اللغوي على مراحل؛ لأنه مكون من أحداث لغوية مركبة أو معقدة، وهي فروع اللغة المختلفة. واتباع هذا المنهج يوفر اليسر والسهولة في تحليل الأحداث اللغوية، والوصول إلى خواص الكلام المدروس؛ إذ تقود كل مرحلة إلى التي تليها وصولاً إلى المعنى الوظيفي. وهذا المعنى لا يمثل سوى حقائق ناقصة من المعنى لا يكتمل إلا بملاحظة عنصر المقام، أو المعنى الاجتماعي، وصولاً إلى المعنى الدلالي.

لقد اتبع (فيرث) في منهجه هذا علماء عديدون، مثل (Mcintosh , Haliday , Sinclair)

(1) (mitchell). وقد اقترح (أمّر) (ammer.K) تقسيماً للسياق ذي أربع شعب⁽²⁾ يشمل:

1 - السياق اللغوي: ويقصد به السياق الذي يحدد معنى الكلمة من خلال تفاعلها بما يسبقها، وما يلحقها من الكلمات، أو الأسلوب الذي ترد فيه اللفظة فتكتسب توجيهاً دلاليّاً من ذلك الأسلوب، وقد ترد في سياق آخر فتكتسب توجيهاً دلاليّاً آخر. ومن هنا فإن للسياق اللغوي أثراً كبيراً في

(1) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 69.

(2) المرجع نفسه، ص 69.

الكشف عن الدلالة، فكلمة (عملية) مثلاً، لا تستطيع تحديد معناها إلا من خلال وجودها في سياق معين، إذ قد يراد بها عملية جراحية، أو عسكرية، أو حسابية⁽¹⁾.

2 - سياق الموقف: ويعرف بأنه كل ما يحيط بالنص من ظروف تتصل بالمكان، أو المتكلم، أو المخاطب في أثناء التفوه، فتعطيها هذه الظروف دلالاتها التي يولدها هذا النوع من السياق⁽²⁾، وقد مر بنا آنفاً العناصر الرئيسيه التي فرعه إليها (فيرث).

3 - السياق العاطفي: وهو درجة القوة أو الضعف في الانفعال مما يقتضي تأكيداً أو مبالغة أو اعتدالاً. فنحن نجد فرقاً بين كلمة (يبغض) وكلمة (يكره) رغم اشتراكهما في أصل المعنى⁽³⁾.

4 - السياق الثقافي: ويقصد به تحديد المحيط الاجتماعي والثقافي الذي تستخدم فيه الكلمة، فكلمة (عقياته) تعد في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميزة بالنسبة إلى كلمة (زوجته)⁽⁴⁾.

لقد وجدت النظرية السياقية استجابة وتقبلاً من لدن علماء في فروع الثقافة المهمة، والتي تعد المعنى جزءاً من موضوعها. وذكر (Leech) أن (فيرث) تأثر في نظريته السياقية بالانثروبولوجي البولندي المولد (Malinowski)، الذي عرف عنه - في دراسته للدور الذي تلعبه اللغة في

(1) المرجع نفسه، 69، 70.

(2) جون لاينز، علم الدلالة، المرجع السابق، ص 218، 222، 223، 225، 226.

(3) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 70، 71.

(4) المرجع نفسه، ص 384.

المجتمعات البدائية - أنه يعالج اللغة كصيغة من الحركة، وليس كأداة للإنعكاس. اللغة في حركتها، والمعنى كما يستعمل يمكن أن ينظر إليهما على أنهما شعار مزدوج لمدرسته الفكرية⁽¹⁾.

ولم تكن (الانثروبولوجيا) وحدها التي أيدت الاتجاه السياقي فقد جاءها التأييد كذلك من جانب الفلاسفة. فقد أيد (Wittgenstein) الفيلسوف، كون معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة⁽²⁾. ويقول (برتراند رسل) الكلمة تحمل معنى غامضاً لدرجة ما. ولكن المعنى يكتشف فقط عن طريق ملاحظة الاستعمال⁽³⁾.

إن هذا التقبل الواسع لم يعق عن توجيه عدة اعتراضات على هذه النظرية⁽⁴⁾، منها:

أولاً - أن فيرث لم يقدم نظرية شاملة للتركيب اللغوي، واكتفى فقط بتقديم نظرية في الدلالة.

ثانياً - إنه لم يكن محدداً في استخدامه لمصطلح السياق (Context) مع أهميته، فضلاً عن أن حديثه عن الموقف (Situation) غامضاً غير واضح، وكان مبالغاً في إعطاء ثقل زائد لفكرة السياق⁽⁵⁾. يقول بالمر: (فصياغة نظرية كاملة للسياق يعني أن على مثل هذه النظرية أن تمثل كل المعلومات المتوفرة عن العالم)⁽⁶⁾.

(1) المرجع نفسه ، ص 72.

(2) المرجع نفسه ، ص 71 ، 72.

(3) المرجع نفسه، ص 72.

(4) المرجع نفسه، ص 73، 74.

(5) جون لاينز، المرجع السابق، ص 63.

(6) المرجع نفسه، ص 59.

ثالثاً - أن هذا المنهج لا يفيد من تصادفه كلمة عجز (السياق) عن تقديم معناها، فلن يفيد شيئاً أن يقال له: أن هذه الكلمة ترد في السياقات الآتية، ولكنه يفيد الباحث الذي يريد أن يتتبع استعمالات الكلمة، واستخداماتها العملية في التعبيرات المختلفة.

وعلى الرغم من هذه الانتقادات، فقد حظي السياق بتأييد بعض من علماء اللغة ممن لا ينتمون إلى سلك المؤيدين لها، أبرزهم (فندريس) و (أولمان)، إذ نبه (فندريس) إلى أهمية السياق قبل ظهور النظرية، بيد أنه لم يعن بعناصر الموقفة، إذ يقول: "الذي يعين قيمة الكلمة هو السياق، إذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها، ويخلق لها قيمة حضورية" (1).

أما (ستيفن أولمان) فقد بين أهمية (السياق) القصوى في فهم النصوص اللغوية، المنطوقة والمكتوبة، إلا أنه حذر من المبالغة التي عند البعض ممن التزم بالمنهج السياقي، من الذين يدعون أن الكلمة معزولة عن (السياق) ليس لها معنى على الإطلاق⁽²⁾، ويرى (أولمان) أن السياق ليس مقصوراً على النظم اللفظي للكلمة وموقعها فيه، وإنما يشمل الجمل والكلمات السابقة لها واللاحقة، فضلاً عن القطعة كلها والكتاب كله، وينبغي أن يشمل ما يتصل بالكلمة من ظروف

(1) اللغة، (فندريس)، ص 228، 231، 232.

(2) جون لاينز، المرجع السابق، ص 215.

وملابسات (العناصر غير اللفظية) لما لها من أهمية قصوى في تبين المعنى الذي حملته الكلمة في السياق⁽¹⁾.

ويضيف إلى ذلك، أنه لم يعارض أحد معارضة جدية في تأثير هذه العوامل جميعاً على المعنى الدقيق للكلمات، وأنه لو روعي السياق بدقة واطراد أكثر لأمكن التخلص من كثير من الاقتباسات والترجمات والتفسيرات الكثيرة الخاطئة⁽²⁾.

وينتهي (أولمان) إلى تأكيد أهمية السياق بقوله: "إن نظرية السياق إذا طبقت بحكمة تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن، إنها مثلاً قد أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي، ومكنت الدراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً... وفوق هذا كله، قد وضعت لنا نظرية السياق مقاييس لشرح الكلمات وتوضيحها عن طريق ما سماه الأستاذ (فيرث) ترتيب الحقائق في سلسلة من السياقات، أي سياقات ينطوي كل واحد منها ضمن سياق آخر وكل واحد منها وظيفة بنفسه، وهو عضو في سياق أكبر، وفي كل السياقات الأخرى، وله مكان خاص فيما يمكن أن نسميه سياق الثقافة والحق أن هذا المنهج طموح إلى درجة لا نستطيع معها في كثير من الأحيان إلا

(1) أولمان ستيفن، دور الكلمة في اللغة تر كمال محمد بشر، مصر (د.ط) مكتبة الشباب، ط10، 1986 ص 50، 51.

(2) أولمان ستيفن، مرجع سابق ص 53.

تحقيق جانب واحد فقط ولكنه مع ذلك يمدنا بمعايير تمكننا من الحكم على النتائج الحقيقية حكماً صحيحاً⁽¹⁾.

لقد أورد هذا الاقتباس على طوله، لما فيه من دفاع حق عن الاتجاه السياقي، ومن شرح لهدفه في التطبيق، من وجهة نظر باحث لم ينتم إليه، ولم يكتف (أولمان) بهذا بل إنه اعتبر (المنهج السياقي) خطوة تمهيدية (للمنهج التحليلي) فكان حريصاً على التنبه على أن المنهجين (السياقي) و (التحليلي) ليسا متضاربين بل إنهما يمثلان خطوتين متتاليتين في اتجاه واحد⁽²⁾.

ويبدو أن الانتقادات التي وجهت إلى (النظرية السياقية) وخصوصاً الثاني منها، وهو محط الطموح فيها، وهو ما عبر عنه (بالمر) بقوله: (فصياغة نظرية كاملة للسياق يعني أن على مثل هذه النظرية أن تمثل كل المعلومات المتوفرة عن العالم)⁽³⁾، قد أثر فيمن التزموا بالاتجاه السياقي، فمالوا إلى القصور على الجانب اللفظي منها فقط رغبة في التخفف من بعض عبئها، فاهتموا فقط فيما عرف بعدئذ بـ (توافق الوقوع) أو (الرصف) والذي عرف بعد بأنه (الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة) أو (استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين، استعمالهما عادة مرتبطتين الواحدة بالأخرى)⁽⁴⁾. وأهم ما يميز هذا الاتجاه ما يأتي⁽⁵⁾:

(1)، المرجع نفسه، ص 55، 56.

(2) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 72، 73.

(3) بالمر، المرجع السابق، ص 57، 59، 60.

(4) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 74.

(5) المرجع نفسه، ص 75، 77.

أولاً – انه لا يهتم من بين أنواع السياق إلا بالسياق اللفظي، أي ببيان مجموعة الكلمات التي تنتظم معها الكلمة موضوع الدراسة. فكلمة (night) ترد في تجمع مع (dork). وكلمة (day) تأتي في تجمع مع (sunny).

ثانياً – انه يهتم ببيان الخصائص اللغوية والنحوية والصرفية، ويستخدمها في تحديد السياقات التي تقع فيها الكلمة.

ثالثاً – انه لا يعتبر الجملة كاملة المعنى، إلا إذا صيغت طبقاً لقواعد النحو، والصرف، وراعت توافق الوقوع بين مفردات الجملة، وتقبلها أبناء اللغة، وفسروها تفسيراً ملائماً، وهو ما أطلق عليه اسم (التقبلية).

وقد عد بعضهم (التحليل الصرفي) غاية في ذاته، وذكر (Leeh) أن قائمة الكلمات التي ترد الكلمة المتراسة معها، تعد جزءاً من معناها⁽¹⁾.

وهناك مميزات تحققها هذه النظرية منها⁽²⁾:

أولاً – انها تعطينا معياراً لتمييز كلمات المشترك اللفظي؛ ذلك أن لكل معنى تؤديه الكلمة (المشتركة) إرتباطاً مع كلمات أحر، قد لا توجد مثلها مع بقية المعاني التي تؤديها تلك الكلمة (المشتركة).

(1) المرجع نفسه، ص 77.

(2) المرجع نفسه، ص 78.

ثانياً – إنها تساعدنا في تحديد التعبيرات المسكوكة، أي الألفاظ التي تقع متصاحبة أبدأً. فإذا كان لفظ يقع في صحبه آخر دائماً، فمن الممكن أن يستخدم هذا التوافق في الوقوع (معياراً) في اعتبار هذا التجمع مفردة.

ثالثاً – إنها تساعدنا في تمييز المترادفات بين اللغات المختلفة فضلاً عن اللغة الواحدة نفسها، بناءً على المبدأ السابق (توافق الوقوع).

رابعاً – أنها تتميز بالعملية، والدقة، والموضوعية؛ فهي قد تخلصت من الانتقادات التي ووجهت بها (النظرية الأم)؛ فضلاً عن التحليل الدقيق الذي تجريه بالتدرج على مكونات الأحداث اللغوية فقط. وعلى الرغم من اعتبار هذا الاتجاه امتداداً لنظرية (السياق) أو تطوراً عنه فهناك من عده نظرية مستقلة، نظراً لما تميزت به من احكام، وما وضع لها من قواعد⁽¹⁾.

(1) أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 74.

الفصل الثاني : دراسة لدور السياق في توجيه المعنى عند المفسرين (سورة يوسف أنموذجاً)

المبحث الأول:لمحة عن سورة يوسف

نحاول في هذا المبحث أن نعرف بالسورة وأغراضها وسبب نزولها.

1/ تعريف سورة يوسف

سورة يوسف من السور التي لم ينقل لها إلا اسم واحد، قال ابن عاشور: "الاسم الوحيد لهذه السورة اسم سورة يوسف، ووجه تسميتها ظاهر لأنها قصت قصة يوسف عليه السلام ، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر وهي مكية على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره، وقد قيل إن الآيات الثلاث من أولها مدنية، قال في الإتقان: وهو واه لا يلتفت إليه، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور، وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار."¹

وقال القرطبي: "وهي مكية كلها، وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها."²

¹ ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984، ج12، ص: 197-198 .

² القرطبي أبو عبد الله محمد ابن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن محسن التركي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006، ج11، ص240.

وهي القصة الوحيدة التي استغرقت سورة طويلة من القرآن الكريم، وهي القصة الطويلة الوحيدة التي جاءت في مكان ولم تتكرر في مواضع أخرى... وهي السورة الوحيدة التي سبقت بوصف أحسن القصص ففي أولها قوله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين).³ وهي كذلك طريفة في المضمون والأحداث، من الرؤى إلى الإلقاء في البئر إلى البيع في إلى المراودة إلى السجن ثم الملك وغيرها من الأحداث كلها مما تفردت به السورة الكريمة والقصة العظيمة، وفي سبيل تأكيد هذه الشخصية المتفردة حشدت السورة من التعابير والصور البيانية ما لم يتكرر في سورة أخرى، وهذه بعض الاستعمالات البلاغية والتعبيرات الخاصة التي لم تتكرر في سورة أخرى: أحد عشر، اطرحوه غيابة الجب، يرتع، الذئب، قميصه، بضاعة، هيت، قدت، شغفها، سكيناً، حاش لله، السجن، أصب خبزاً، حصص، رحالهم، نمير، بعير، صواع، وعاء، معاذ الله، العير، حرصاً، تفتاً... غلقت...⁴ وغيرها.

إن هذه السورة تكشف لنا النقاب عن سر الإرادة والقدر وعن العناية الإلهية التي تخفى على كثير من الناس، إلا على من آتاه الله حساً مرهفاً، وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون،

³ سورة يوسف، الآية 3.

⁴ أحمد نوفل، سورة يوسف (دراسة تحليلية)، دار الفرقان، عمان، ط1، 1989، ص9-10.

وأسابيها الظاهرة، وعواطف الإنسان، ومقرراته وتصميماته، وذلك ما أبصره يعقوب وأحسه من أول القصة، فانكشفت له الحقيقة الكبرى فصبر وآمن وترقب لطف الأقدار وصنيع العناية⁵.

2 / أغراض سورة يوسف

تختلف أغراض السور باختلاف القصص الواردة فيها والظروف التي نزلت فيها فقد روى الواحدي والطبري يزيد أحدهما على الآخر عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه زماناً، فقالوا - أي المسلمون بمكة - : يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى (ألم تلك آيات الكتاب المبين (1) إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (2))⁶

فأهم أغراضها: بيان قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة، وفيها إثبات أن بعض المرئي قد يكون إنباء بأمر مغيب وذلك من أصول النبوءات وهو من أصول الحكمة المشرقية، وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالح عباد، وتحاسد القرابة بينهم، ولطف الله لمن يصطفيه من عباد، والعبرة بحسن العواقب، والوفاء والأمانة والصدق والتوبة، وسكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر، وتسلية النبي -

⁵ أحمد نوفل، المرجع نفسه، ص13.

⁶ سورة يوسف الآية 1-2.

صلى الله عليه وسلم- بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلم من الأذى، وقد لقي النبي- صلى الله عليه وسلم- من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه، مثل عمه أبي لهب، والنضر بن الحارث، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم من بعد وحسن إسلامه، فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء، قال تعالى (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين⁷. وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف - عليهما السلام - على البلوى، وكيف تكون لهما العاقبة، وفيها العبرة بهجرة النبي - صلى الله عليه وسلم- إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب عليه السلام وآله، وذلك إيماء إلى أن قريشا ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعاً لهجرة النبي- صلى الله عليه وسلم- وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارها...⁸

و إن في هذه السورة أسلوباً خاصاً من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم...⁹

⁷ سورة يوسف الآية 7.

⁸ ابن عاشور، مرجع سابق، ص 198-199.

⁹ ابن عاشور، مرجع سابق، ص 199.

3/ سبب نزول سورة يوسف

من بين الآراء التي وردت في سبب نزول سورة يوسف ذكر ابن عطية أنها مكية قال: "ويروى أن اليهود سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك، ويروى أن اليهود أمروا كفار مكة أن يسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت السورة، وقيل: سبب نزولها تسليّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف."¹⁰

وذكر القرطبي في سبب نزول السورة: "و روي أن اليهود سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قصة يوسف فنزلت السورة"¹¹

¹⁰ ابن عطية أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز، تح: عبد السلام وعبد الشافي محمد، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ج3، ص218.

¹¹ القرطبي، مصدر سابق، ص240.

المبحث الثاني: نماذج لدور السياق في توجيه المعنى

نحاول في هذا المبحث أن نعرض نماذج نوضح من خلالها الدور الذي يلعبه السياق في توجيه المعنى، وذلك بتقديم بعض الآيات من سورة يوسف، فكيف يتحدد لنا المعنى من خلال دور السياق وآلياته.

النموذج الأول:

قال تعالى: (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله أعلم بما يعملون)¹²

¹² سورة يوسف، الآية 19.

أختلف أهل التفسير من الصحابة والتابعين من بعدهم في عودة الضمير المتصل "الواو" هل يعود إلى إخوة يوسف أم إلى وادي الجب.

قال ابن جرير الطبري: "وأما قوله (وأسروه بضاعة) فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: وأسره الوارد المستقي وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا لهم: هو بضاعة استبضعناها بعض أهل مصر... وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأسره التجار بعضهم من بعض... وقال آخرون: معنى ذلك: وأسروا بيعه... وقال آخرون: إنما عنى بقوله: (وأسروه بضاعة) إخوة يوسف أنهم أسروا شأن يوسف أن يكون أخاهم قالوا: هو عبد لنا¹³. يقول الطبري: "وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: وأسروا القوم المدلي دلوه ومن معه من أصحابه من رفقته السيارة أمر يوسف أنهم اشتروه خيفة منهم أ يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضعها معنا أهل الماء وذلك أنه عقب الخبر عنه، فلان يكون ما وليه من الخبر خبراً عنه، أشبه من أن يكون خبراً عن من هو بالخبر عنه غير متصل"¹⁴

فتفسير الطبري يستند إلى السياق اللغوي وذلك في عودة الضمير المتصل (وأسروه) إلى المذكور الذي قبله مباشرة وهو واردوا الجب.

¹³ ينظر الطبري أبو جعفر محمد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ط، د.ت، ج16، ص6.4.

يقول القرطبي: " (وأسروه بضاعة) الهاء كناية عن يوسف عليه السلام، فأما الواو فكناية عن إخوته. وقيل عن التجار الذين اشتروه، وقيل عن الوارد وأصحابه... إذ قالوا لهم هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر وإنما قالوا هذا خيفة الشركة، وقال ابن عباس أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب وذلك أنهم جاؤوا فقالوا: بئس ما صنعتم هذا عبد أبق وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تقر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء وإما أن نأخذك فنقتلك، فقال أنا أقر بالعبودية، فأقر لهم فباعوه منهم."¹⁵

فالقرطبي هنا ذكر وجهين بالنسبة لعودة الضمير "الواو" استناداً للتراكيب اللغوية للآية فذكر أنهم واردوا الجب وذكر أنهم إخوة يوسف، ما جعل المعنى متعدداً دون أن يرجح معنى على آخر.

ويقول ابن كثير: " وقوله (وأسروه بضاعة) أي أسره الواردون من بقية السيارة وقالوا اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره... وقال العوفي عن ابن

¹⁴ الطبري أبو جعفر محمد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن الترك، دار هجر، القاهرة، ط1، 2001، ص49.

¹⁵ القرطبي، مصدر سابق، ص294.

عباس قوله: (وأسروه بضاعة) يعني: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أخاهم وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع...¹⁶

يذهب ابن كثير إلى الإحالة المباشرة للضمير في (وأسروه) الواو إلى من ورد الماء وهو الأقرب في سياق الآية.

ونذكر في هذا ابن عاشور: "ومعنى (وأسروه) أخفوه، والضمير للسيارة لا محالة".¹⁷

فقد رجح كثير من المفسرين كالطبري وابن عاشور القول الذي يرى أصحابه بأن السيارة هم من أسروا يوسف عليه السلام، ذلك لأن السياق اللغوي يدل عليه حيث أن الضمير في قوله تعالى: (وأسروه بضاعة) يتضمن القاعدة التي ترى أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور إلا بدليل يدل عليه خلاف ذلك، وقد جاء في بداية الآية قال تعالى: (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم) فالسيارة في الآية الأقرب إلى الضمير المتصل بـ (أسروه) أي الواو، أما إخوة يوسف فقد سبق ذكرهم في الآية (18) لهذا كان من المتعين أن يعود الضمير إلى من ورد الماء.

وكذلك يمكن الإستعانة بالسياق للقول إن السيارة هم من أسروا خيفة من أن يشركهم من

معهم.¹⁸

¹⁶ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ص376.

¹⁷ ابن عاشور، مرجع سابق، ص242.

النموذج الثاني:

يتبين للمتبع للنص القرآني في التفاسير أنه من بين الضوابط التي تلزم في فهم النص هي الإلتفات إلى أول الكلام وآخره وهو ما لجأ إليه الطبري وآخرون في هذه الآية. قال الله تعالى (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)¹⁹

إن قوله: (وشروه) به: وباع إخوة يوسف يوسف، وقال آخرون: بل عنى بقوله: (وشروه بثمن بخس) السيارة أنهم باعوا يوسف بثمن بخس... قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب،

¹⁸ ابن عاشور، مرجع سابق، ص242.

¹⁹ سورة يوسف، الآية 20.

قول من قال: تأويل ذلك: (و شرى إخوة يوسف يوسف بثمن بخس) وذلك أن الله عز و جل قد أخبر عن الذين اشتروه أنهم أسروا شراء يوسف من أصحابهم خيفة أن يستشركوهم.²⁰

فالطبري هنا يراعي آخر الكلام وهو الآية التي تأتي بعد (وشروه بثمن بخس) أي (وكانوا فيه من الزاهدين) أي إخوته، وذلك للتوجيه الصائب للمعنى، وهو في تفسيره هذا يتوصل إلى إدراك المقاصد على الوجه المراد استناداً إلى السياق اللغوي للآية.

يقول القرطبي في هذا: قوله تعالى : (وشروه) يقال: شريت بمعنى اشتريت وشريت بعت... (بثمن بخس) أي: نقص... وقال قتادة: (بخس): ظلم، وقال الضحاك ومقاتل و السدي وابن عطاء: (بخس): حرام، وقال ابن العربي: ولا وجه له، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة، لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلو وجه أبيهم عنه.²¹

فكلمة "بخس" أخرجت المعنى من ظاهره بمعنى نقص القيمة إلى معنى باطني وهو الرغبة الشديدة في التخلص من يوسف من طرف إخوته يتبين أن القرطبي في تفسيره استند إلى سياق الموقف وذلك بالنسبة لإخوة يوسف حين باعوه بهذا الثمن.

²⁰ الطبري، مصدر سابق، ص10.8.

²¹ القرطبي، مصدر سابق، ص296.294.

ويذكر ابن كثير: "وقوله: (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة... قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: أن الضمير في قوله (وشروه) عائد على إخوة يوسف، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة، والأول أقوى، لأن قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما شروه فيرجح من هذا أن الضمير في (وشروه) إنما هو لإخوته.²²

يتبين أن ابن كثير قد قوى قولاً على قول إلتفت فيه إلى آخر الكلام في قوله تعالى (وكانوا فيه من الزاهدين) وهي آية تأتي بعد (وشروه بثمن بخس) ما سوغ لابن كثير أن يرجح عودة الضمير على إخوة يوسف لا على السيارة.

فالذي دعى إلى القول أن الضمير في قوله تعالى (وشروه) عائد على إخوة يوسف عليه السلام، هو السياق اللغوي الذي يفهم منه المعنى من خلال الآية التي استبشر فيها السيارة لما رأوا يوسف عليه السلام، فيرجح على هذا أن الضمير عائد على الإخوة، هذا على الرأي الذي يرى أنصاره بأن الضمير في قوله تعالى: (وشروه بثمن بخس) إنما مرده للإخوة الذين سعوا إلى إخفاء يوسف عليه السلام عن أبيهم.

²² ابن كثير، مصدر سابق، ص 377.

وكذلك وهو الحال في قوله تعالى (بخس) ، يقول الطبري: " وأما قوله: (بخس) فإنه يعني نقص. وهو مصدر قول القائل: (بخست فلانا حقه) إذا ظلمته، يعني ظلمه فنقصه عما يجب له من الوفاء... واختلف أهل التأويل في معنى ذلك. فقال بعضهم: قيل (بثمن بخس) لأنه كان حراما عليهم... قال (البخس) الحرام... وقال آخرون: معنى (البخس) هنا: الظلم ... وقال آخرون: عني بالبخس في هذا الموضع: القليل...²³

وفي هذا يقول ابن كثير: "والبخس: هو النقص... وقيل: المراد بقوله: (بخس) الحرام، وقيل: الظلم، وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا، لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي... وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان..."²⁴

فيتضح من خلال آراء المفسرين أن ترجيح المراد بقول الله: (بخس) إنما هو بيع يوسف عليه السلام بأنقص الأثمان رغبة في التخلص منه، وإبعاده عن أبيه، كما يقول ابن كثير بعدما ذكر ما تحمله اللفظة من دلالات، والذي جعل ابن كثير يعطي للفظه هذه الدلالة إنما هو السياق الذي وردت فيه.

²³ الطبري، مصدر سابق، ص 10، 12.

²⁴ ابن كثير، مصدر سابق، ص 377.

النموذج الثالث:

يلتبس الأمر أحياناً في فهم بعض المعاني، وإدراك بعض المقاصد، وذلك في باب الضمائر وعودتها إلى من تعود إليه في سياق الكلام مثل قوله تعالى: (وقال للذي ظن أنه ناج منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين)²⁵

ففي (أنساه الشيطان ذكر ربه) يقول الطبري: "إن قوله تعالى: (فأنساه الشيطان ذكر ربه) خبر من الله جل ثناؤه عن غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان، نسي لها ذكر ربه الذي لو به استغاث لأسرع بما هو فيه خلاصه، ولكنه زل بها فأطال من أجله في السجن حبسه وأوجع لها عقوبته... وكان محمد بن إسحاق يقول: غنما أنسى الشيطان الساقى ذكر أمر يوسف لملكهم."²⁶

وفي قوله تعالى: (أنساه الشيطان ذكر ربه) الضمير في (أنساه) فيه قولان:

أحدهما: أنه عائد على يوسف عليه السلام أي: أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل، ذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك - حين علم أنه سينجو إلى حالته الأولى مع الملك - (أذكرني عند لربك) نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الإعتصام بالمخلوق،

²⁵ سورة يوسف، الآية 42.

²⁶ الطبري، مصدر سابق، ص 113.111.

فعوقب باللبث في السجن... وقيل: إن الهاء تعود على الناجي فهو الناسي، أي أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف لربه، أي سيده، وفيه حذف أي: أنساه الشيطان ذكره لربه، وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال: لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن، إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأول: بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب، رد عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة)²⁷ فدل على أن الناسي هو الساقى لا يوسف، مع قوله تعالى: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان)²⁸ فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان وليس له على الأنبياء سلطنة. أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه، وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً.²⁹

في عودة الضمير (أنساه) إلى يوسف مراعاة للكلام الذي سبق بعده في قوله تعالى: (فلبث في السجن بضع سنين) أي يوسف.

²⁷ سورة يوسف، الآية 45.

²⁸ سورة الحجر، الآية 42.

²⁹ القرطبي، مصدر سابق، ص 354. 357.

يقول ابن كثير: "لما ظن يوسف عليه السلام نجاة أحدهما وهو الساقى، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: (أذكرني عند ربك) يقول: أذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد على الناجي... ويقال: إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام."³⁰

في عودة الضمير (أنساه) إلى الناجي مراعاة للكلام الذي قبله أي السياق اللغوي للآية ، وذلك في قوله تعالى: (وقال للذي ظن أنه ناج منهما أذكرني عند ربك) الأمر الذي يجعل المعنى يأخذ أكثر من وجه.

³⁰ ابن كثير، مصدر سابق، ص 391.

ويقول ابن عاشور : وضميراً (فأنساه) و(ربه) يحتملان العودة الى (الذي) أي أنسى الشيطان الذي نجى أن يذكره لربه، فالذكر الثاني هو الأول، ويحتمل أن يعود الضميران الى ما عدا إليه ضمير (وقال) أي يوسف عليه السلام، أنساه الشيطان ذكر الله فالذكر الثاني غير الذكر الأول ولعل كلا الاحتمالين مراد وهو من بديع الإيجاز وذلك ان نسيان يوسف عليه السلام أن يسأل الله الهام الملك تذكر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيته وكان ذلك سببا الاهيا في نسيان الساقى تذكر الملك وكان ذلك عتابا الاهيا ليسوف عليه السلام على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربه على خلاصه ولعل في إيراد هذا الكلام على هذا التوجيه تلطفا في الخبر عن يوسف عليه السلام لأن الكلام الموجه في المعاني الموجهة أطف من الصريح¹.

ان الذين قالوا في تفسيرهم الصواب أن الضمير في قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد على الناجي كما فعل ابن كثير راجع بالأساس الى الظروف المحيطة وعلى ذلك يمكن تفسير قوله: (فأنساه الشيطان ذكر ربه) بأن المراد من الضمير هو الناجي من صاحبي يوسف عليه السلام.

في قوله تعالى: (فلبث في السجن بضع سنين):

وأختلف أهل التأويل في قدر (البضع) الذي لبث يوسف في السجن فقال بعضهم: هو سبع سنين وقال آخرون: (البضع) من الثلاث الى التسع الى العشر ولا يكون دون ثلاث وكذلك مازاد عن العقد الى المئة ومازاد على المئة فلا يكون فيه بضع².

وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل:

أحدها : سبع سنين، قال ابن جريج وقتادة ووهب ابن منبه .

الثاني : اثنتا عشر سنة، قاله ابن عباس .

الثالث : أربعة عشر سنة، قاله الضحاك .

وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن خمس ويضعا

واشتقاقه من بضعت الشيء ، أي : قطعته، فهو قطعة من العدد فعاقب الله يوسف بان حبس

سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت فالبضع مدة العقوبة لأمدة الحبس كله¹.

¹ ابن عاشور، مرجع سابق ص 278.279

² الطبري، مصدر سابق ص 114.115

¹ القرطبي، مصدر سابق ، ص 358.

يقول ابن كثير: وأما (البضع) فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث الى التسع، وقال وهب بن منبه:

مكث أيوب في البلاء سبعا ويوسف في السجن سبعا وعذاب بختنصر سبعا، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : فلبث في السجن بضع سنين قال: اثنتا عشر سنة وقال الضحاك: أربعة عشر سنة².

يتحكم السياق في تفسير الآية فبحسب ماتحملة لفظة (بضع) من دلالة يتغير التفسير فمن كان يرى أن دلالة (البضع) هي عدد بذاته يكون حمل ذلك المعنى المستفاد على توجيه الآية فيرى مثلاً البعض أن يوسف عليه السلام قد سجن سبع سنوات وهذا راجع لماتحملة دلالة اللفظة، ويقول آخر ان مدة السجن قد تكون مضبوطة لكنها تتراوح على هذا بين ثلاث الى تسع سنوات وهكذا.

² ابن كثير ، مصدر سابق، ص 391،392.

النموذج الرابع:

(ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين)¹.

قال ابو جعفر يعني بقوله : (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) هذا الفعل الذي فعلته من ردي رسول الملك اليه وتركه اجابته والخروج اليه... انما فعلته ليعلم اني لم أخنه في زوجته بالغيب².

قوله تعالى: (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) اختلف فيمن قاله فقيل : هو من قول امرأة العزيز وهو متصل بقولها: (الآن حصص الحق) أي : اقررت بالصدق ليعلم اني لم أخنه بالغيب أي بالكذب عليه ولم أذكره بسوء وهو غائب بل صدقت وحدثت عن الخيانة ثم قالت: (وما أبرئ نفسي) بل أنا راودته وعلى هذا هي كانت مقرة بالصانع، ولهذا قالت: (ان ربي غفور رحيم) وقيل : هو من قول يوسف أي قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلته من رد الرسول (ليعلم) العزيز (اني لم أخنه بالغيب) قال الحسن وقتادة وغيرهما³.

¹ سورة يوسف الآية 52.

² الطبري مصدر سابق، ص 140.

³ القرطبي مصدر سابق، ص 375.

يقول ابن كثير: تقول : انما اعترفت بهذا عن نفسي ذلك ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر ولا وقع المحذور الأكبر، وانما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت اني بريئة ... وهذا القول الأشهر... وقد قيل: ان ذلك من كلام يوسف عليه السلام وهذا القول الذي لم يحك ابن جرير ولا ابي حاتم سواه⁴ .

ويقول ابن عاشور : وظاهر نظم الكلام ان الجملة من القول امرأة العزيز، وعلى ذلك حمله الأقل من المفسرين، وعزاه ابن عطية الى فرقة من اهل التأويل، ونسب الى الجبائي واختاره الماوردي، وهو في موقع العلة لما تضمنته جملة (انا راودته عن نفسه) وما عطف عليها من اقرار لبراءة يوسف عليه السلام لما كانت رتمته به، فالإشارة بذلك الى الاقرار المستفاد من جملة (انا راودته) اي ذلك الاقرار ليعلم يوسف -عليه السلام- اني لم اخنه¹ .

يستفاد من السياق العام التي وردت فيه الآية كما يقول ابن كثير ان الكلام هو من عند امرأة العزيز ليعلم زوجها انها لم تخنه، واذا ذهب ابن عاشور حيث ذكر ان ظاهر نظم

⁴ ابن كثير، مصدر سابق ص394، 395.

¹ ابن عاشور، مرجع سابق ص 292.

الكلام ان ما قيل من قولها، وانما استنتج المفسرون هذا من الملايسات التي قيل فيها القول، وهذا ما أكده غير واحد كما سبق من المفسرين.

النموذج الخامس:

(وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربي ان ربي غفور رحيم)²

ولا يقتصر دور السياق على ترجيح دلالة لفظ على اخر، وانما هو يسعف في حسم الخلاف بين المفسرين في شأن المخاطبات والاقوال، فكثيرا ما يقف المفسرون عند تاويل الاقوال الواردة في القران الكريم فينشأ بينهم الخلاف حول مصدرها، فمنهم من يقول: هذا من قول الملائكة، ومنهم من يقول: هو من قول الله...³

ومن امثلة ذلك الخلاف الذي يشب بين المفسرين حول مصدر الاقوال والمخاطبات داخل الخطاب القرآني قوله تعالى: (وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربي ان ربي

² سورة يوسف ، الاية: 53.

³ محمد اقبال عروي ، دور السياق في الترجيح بين الاقوال التفسيرية، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، الكويت، ط1، 2007، ص81.

غفور رحيم) فقد ذكر الطبري انها من كلام يوسف عليه السلام، وعلل ذلك بقوله: وذكر ان يوسف قال هذا القول من اجل ان يوسف لما قال: (ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب) قال ملك من الملائكة: (ولا يوم هممت بها) فقال يوسف حينئذ: (وما أبرئ نفسي) مع ان ارجاع ذلك المقول الى صياغه في الخطاب يدل على ان الكلام لامرأة العزيز وليس ليوسف، وهو مذهب ابن كثير في قوله: "تقول المرأة ولست ابرئ نفسي، فان النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لان النفس الامارة بالسوء، الا مارحم ربي وهذا القول الاشهر والاليق والاناسب بسياق القصة ومعاني الكلام"¹.

وهو ما قصده الطاهر بن عاشور بقوله: "ظاهر ترتيب الكلام ان هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية اقرارها فقالت: (وما أبرئ نفسي) وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها(ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب) من ان تبرئة نفسها من الذنب العظيم ادعاء بان نفسها بريئة براءة عامة فقالت (وما ابرئ نفسي) اي وما ابرئ نفسي من محاولة هذا الاثم، ان النفس امارة بالسوء، وقد امرتني بالسوء ولكن لم يقع..."² ثم ينقل بعد هذا قول القرضاوي حيث يقول : " ونبه الشيخ يوسف القرضاوي على هذا بين يدي حديثه على اهمية مراعاة السياق في تفسير القرءان الكريم ورجح ان الكلام هو لامرأة العزيز، يقول: (فالواضح من السياق أن المرأة برأت يوسف مما

¹ ابن كثير، مصدر سابق، ص 395.394

² ابن عاشورن مرجع سابق، ج 13، ص 5.

الصق به ظلماً وزوراً، كما بينت أنها إنما اعترفت على نفسها ليعلم زوجها أنها لم تخنه بالغيب في نفس الأمر ولم يقع المحذور الأكبر إنما كانت منها المرادة، وكان من يوسف الأباء، وهي لا تبرئ نفسها فقد تمتت المعصية وسعت إليها بالفعل والنفس اشارة بالسوء الا مارحم ربي) واعتبر الكلام متصلاً بما قبله .

من كلام امرأة العزيز، وأشار إلى أن ابن كثير ذكر بان الامام ابن تيمية انتدب لنصر القول بان الكلام هو لامرأة العزيز وافرده بتصنيف¹.

ليختم قوله: "... اعمال السياق يسهم في القيام بمهمة الترجيح بين الاقوال..."²

النموذج السادس:

(قالوا أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرهما يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون)³

¹ محمد اقبال عروي، مرجع سابق، ص 84.82

² محمد اقبال عروي، مرجع نفسه، ص 84

³ سورة يوسف، الآية: 77.

اختلف المفسرون في ما الذي أخفاه يوسف في نفسه ولم يظهره لإخوته هل هو معنى الجملة التي تلت هذه العبارة وهي قوله (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) أم أن ما أخفاه هو المقصود ودلالة السياق توضح المعنى.

يقول تعالى ذكره: (قالوا أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يعنون أخاه لابيه وامه وهو يوسف... وقد اختلف أهل التأويل في (السرق) الذي وصفوا به يوسف فقال بعضهم: كان صنما لجده أبي امه، كسره والقاه على الطريق... وقال آخرون في ذلك: كان بنو يعقوب على طعام إذ نظر يوسف إلى عرق فخبأه، فعيروه بذلك...⁴

وقوله تعالى: (قالوا أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) المعنى: أي اقتدى بأخيه ولو اقتدى بنا ماسرق، وإنما قالوا ذلك ليبرئوا من فعله لأنه ليس من أهمهم، وأنه إن سرق فقد جذبته عرق أخيه السارق لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق⁵

وقال أخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين: (قالوا أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ينتصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له

⁴ الطبري، مصدر سابق، ص 194.196

⁵ القرطبي، مصدر سابق، ص 418.

من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام.¹ من خلال السياق الخارجي المصاحب للقصة فهم ان المراد بسرقة اخ له هو يوسف عليه السلام، فمعرفة مايتصل بحياته عليه السلام رجح القول لان الاخ المقصود لا يخرج عن كونه يوسف عليه السلام.

فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون.²

يقول الطبري: (فاسرها) فانث، لانه عنى بها (الكلمة) وهي : (انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون) ولو كانت جات للتذكير كان جائزاً، كما قيل: (تلك من انباء الغيب)³ و(ذلك من انباء القرى)⁴.

وكنى عن (الكلمة) ولم يجر لها ذكر متقدم، والعرب تفعل كثيرا اذا كان مفهوما المعنى المراد عند سامعي الكلام.⁵

¹ ابن كثير، مصدر سابق، ص402.

² سورة يوسف، الآية: 77.

³ سورة هود، الآية: 49.

⁴ سورة هود، الآية: 100.

⁵ الطبري، مصدر سابق، ص 198.

ويقول الطبري : قوله تعالى: (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) أي : اسر في نفسه قولهم : (ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل) ، قال ابن شجرة وابن عيسى وقيل : انه اسر في نفسه قوله: (انتم شر مكانا) ثم جهر فقال : (والله اعلم بما تصفون) قاله ابن عباس.

أي: انتم شر مكانا ممن نسبتموه الى هذه السرقة. ويكثر ابن كثير: "وقوله (فأسرها يوسف في نفسه) يعني: الكلمة التي بعدها وهي قوله: (انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون) اي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم وهذا من باب الاضمار قبل الذكر¹.

يظهر ان المشار اليها في قوله:(فأسرها) هي الكلمة التي وردت بعدها وان لم يذكر ذلك صراحة وانما فهم ذلك من خلال السياق، في حين قيل بعدها (انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون) ادرك المفسرون ان المقصود بالضمير هي الجملة بعدها.

النموذج السابع:

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله امنين)²

قيل : عني بقوله : (اوى اليه ابويه) ابوه وخالته وقال الذين قالو هذا القول: كانت ام يوسف قد ماتت قبل، وانما كانت عند يعقوب يومئذ خالته اخت امه، كان نكحها بعد امه...

¹ ابن كثير، مصدر سابق ص403.

² سورة يوسف، الآية99.

وقال اخرون: بل كان ابيه وامه... قال ابو جعفر واولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن اسحاق، لان ذلك هو الاغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في (ابوين) الا ان يصح ما يقال من انام يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة التسليم لها فيسلم حينئذ لها³.

وقوله: (اوى اليه ابويه) قال السدي وعبد الرحمان بن زيد بن اسلم انما كان اباه وخالته ومكانت امه قد ماتت قديما، وقال محمد بن اسحاق وابن جرير: كان ابوه وامه يعيشان قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت امه، وظاهر القرءان يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق...⁴

يفهم من خلال قول ابن جرير وغيره ان توظيف السياق الخارجي الذي يقول بحياة ام يوسف هو مارجح المعنى من ان الأبوين هنا هما الأب والام ، بل ابن جرير يذكر قول السياق صراحة وان للسياق ومعرفة الظروف المحيطة بالحادثة هو الذي دعى بان الام هي من رفعت لا الخالة.

النموذج الثامن:

³ الطبري، مصدر سابق ، ص266.267.

⁴ ابن كثير، مصدر سابق، ص 411.412.

(ورفع أبويه على العرش وخرروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقها وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم)¹.

وقوله:² (وخرروا له سجدا)، يقول : وخر يعقوب وولده وأمه سجدا ... وإنما عني من الذكر بقوله: ان السجود كان تحية بينهم، ان ذلك كان منهم على الخلق، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض ، ومما يدل على ذلك لم يكن من اخلاق الناس قديما قبل الاسلام على غير وجه العبادة من بعضهم لبعض قول اعشى بني ثعلبية:

فما اتانا بيعد الكرى سجدا له ورفعنا عمارا.

وقوله: (وخرروا له سجدا) اي : سجد له ابواه واخوته الباكون، وكان احدا عشر رجلا ...وقد كان هذا سائغا في شرائعهم اذ سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزا من لدن ادم الى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في الملة، وجعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى³.

¹ سورة يوسف، الآية: 100.

² الطبري، مصدر ساق، ص269.270.

³ ابن كثير مصدر سابق، ص411.412.

يمكننا القول من معرفة طريقة التعامل الشائعة في ذلك الزمان من ان السجود كان تحية بين الناس وقتها، او حتى ماكان سائغا في شرائعهم اذا سلموا على الكبير اي يسجدون له، كل هذا يرجح المعنى الذي يقول ان هذا السجود لم يكن يدل على ان يوسف عليه السلام وصل لدرجة التعظيم من اهله حتى اتخذه اله يعبدونه.

خاتمة

مما سبق، يتبين لنا أن قرينة السياق تمتد على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللغة من حيث تراكيبيها، وعلاقتها النحوية، وتشتمل هذه القرينة على العناصر غير اللغوية مثل ظروف المتكلم والمخاطب، وعلى المقام والقرينة الاجتماعية من تقاليد وعادات مما يجعل قرينة السياق مهمة في تحديد المعنى المراد، فالمقام والمقال بمثابة قطبين يكتنفان المعنى بحيث لا يتضح إلا بمراعاتهما، والسياق اللغوي والخارجي يكمل أحدهما الآخر، فلا يمكن الإستغناء عن أحدهما في فهم معنى النص.

ومما يمكن استنتاجه :

- لجوء المفسرين إلى مراعاة السياق في تفسيراتهم وتأويلاتهم.
- إهتمام الأصوليين والمفسرين بالدراسات اللغوية المتعلقة بالألفاظ ومعانيها، لفهم الوحي الكريم، واستنباط المقاصد الشرعية منه، قصد فهمها وتطبيقها.
- تميز النظرية السياقية العربية على نظيرتها الغربية، وذلك لتضمنها السياق القرآني.
- أهم فوائد السياق الكشف عن معنى النص القرآني ومقاصده .
- تنوع استخدام السياق في التراث العربي(الموقف، مقتضى الحال، المقام) وتعدد أنواع السياق القرآني في سورة يوسف.
- السياق يساهم في تماسك النص القرآني خاصة القصصي منه.

قائمة المصادر والمراجع :

1. القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.
2. إبراهيم أنيس وآخرون المعجم الوسيط الجزء الأول دم (د.ط) ط:1، د.ت.
3. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، دار العربية، الكويت، ط1، 1989.
4. أحمد نوفل، سورة يوسف(دراسة تحليلية)، دار الفرقان، عمان، ط1، 1989.
5. أولمان ستيفن، دور الكلمة في اللغة تر كمال محمد بشر، مصر(د.ط) مكتبة الشباب، ط:10، 1986.
6. تمام حسان: العربية معناها ومبناها، بغداد الهيئة المصرية العامة للكتاب – دار الشؤون الثقافية العامة (مشروع النشر المشترك)، 1988.
7. أبو حامد الغزالي، المستصفي من علم الأصول تح:حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة للطباعة، المدينة المنورة، ج1.
8. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا مقاييس اللغة... تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر (مطبعة البابي الحلبي وأولاده)، ط: 1972 .

9. ابن جني الخصائص: تحقيق : محمد النجار ج01، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1999 .
10. جون لاينز ما معنى نظرية المعنى عند فيرث، ترجمة د. عبد الكريم مجاهد، آفاق عربية، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، مج:15، العدد الثاني عشر، 1990.
11. لاينز _ (جون). علم الدلالة، الفصلان التاسع والعاشر من كتاب (مقدمة في علم اللغة النظري تر(د.مجيد الماشطة وآخرون، دم (د.ط) منشورات جامعة البصرة، 1980.
12. ابن خلدون ،المقدمة ، بيروت (د.ط) دار القلم، ط:1، 1978.
13. ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي جمهرة اللغة.. بيروت (د- ط) دار صادر، ط: 1، 1345 هـ.
14. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلا محمد هارون، الخانجي، القاهرة، ط3، 1988، ج1، ص79.
15. السيوطي ، الاتقان في علم القرآن ج02.. دم (د.ط) دار الندوة الجديدة، د.ت.
16. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر لباب النقول في أسباب النزول.. . بيروت (د.ت.المكتبة الشعبية، ط:2، د.ت.

17. الشاطبي الموافقات في أصول الشريعة ، تحقيق : عبد الله دراز ، دار المعرفة ، بيروت ، ط2 ، 2004: ج3 ، .
18. الشافعي محمد بن إدريس الرسالة.. تحقيق احمد شاكر، القاهرة (د.ط) دار التراث، د.ت.
19. صاحب أبو جناح السياق في الفكر اللغوي عند العرب، (الأقلام العدد: 3 - 4 ، (آذار - نيسان / 1992) .
20. طاهر سليمان ،دراسة المعنى عند الأصوليين.. الإسكندرية د.ط الدار الجامعية، د.ت .
21. الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 2001.
22. الطبري أبو جعفر محمد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ط،د.ت، ج 16.
23. ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط،1984، ج12.
24. عبد الهادي بن ظافر الشهيري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ط1، 2004.

25. ابن عطية ابو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ج3.
26. فوزي إبراهيم، السياق ودلالة في توجيه المعنى رسالة دكتوراه، كلية الاداب جامعة بغداد، 1996.
27. القرطبي ابو عبد الله محمد ابن احمد، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2006، ج1.
28. ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، د.ط، د.ت.
29. الآمدي الإحكام في أصول الأحكام، ج 1.
30. كمال محمد، دراسات في علم اللغة (القسم الثاني)، مصر (د.ط) دار المعارف، ط: 2، 1971.
31. عمر احمد مختار، علم الدلالة، الكويت (د.ط) دار العربية، ط: 1، 1982 .
32. المبرد، المقتضب: تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، بيروت (د.ط) عالم الكتب، د.ت. ج4.

33. محمد اقبال عروي، دور السياق في الترجيح بين الاقاويل التفسيرية، وزارة الأوقاف

والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2007.

34. ابن منظور لسان العرب.. مصر (د.ط) الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

35. الواحدي أبو الحسن علي بن احمد النيسابوري أسباب النزول.. دراسة وتحقيق: د. السيد

الجميل، د. م (د. ط) دار الكاتب العربي، ط:، 1990.

مقدمة.....أ ب

الفصل الأول السياق مفهومه وأنواعه

المبحث الأول: مفهوم السياق.....ص4

- السياق لغة.....ص4
- السياق اصطلاحاً.....ص5
- أنواع السياق.....ص6

المبحث الثاني: السياق عند المفسرين والأصوليين والنحويين والدرس اللغوي

الحديث.....ص9

• السياق عن

- المفسرين.....ص10
- السياق في علم أصول الفقه.....ص12
- السياق في علوم اللغة والبلاغة.....ص15
- السياق في الدرس اللغوي الحديث.....ص21

الفصل الثاني : دراسة لدور السياق في توجيه المعنى عند المفسرين (سورة يوسف أنموذجاً)

المبحث الأول: لمحة عن سورة يوسف.....ص30

- تعريف سورة يوسف.....ص30
- أغراض سورة يوسف.....ص31
- سبب نزول سورة يوسف.....ص33

المبحث الثاني: نماذج لدور السياق في توجيه المعنى.....ص34

- النموذج الأول.....ص34
- النموذج الثاني.....ص37

- النموذج الثالث.....ص39
- النموذج الرابع.....ص44
- النموذج الخامس.....ص44
- النموذج السادس.....ص47
- النموذج السابع.....ص47
- النموذج الثامن.....ص50
- خاتمة.....ص53
- قائمة المصادر والمراجع.....ص55
- فهرس المحتويات.....ص59